عمارة الحداثة في تخطيط مدينة بغداد

د.عامر شاكر خصير
معهد التخطيط الحضري والاقليمي للدراسات العليا
رنا صبحي ناصر

المقدمة:

مرت مدينة بغداد بتغيرات وتطورات مختلفة ، أثرت على طابعها العمراني بشكل ملحوظ . وغير ذلك من نسيجها الحضري . وكان من أبرز التغيرات في عمارتها تلك الفترة التي تميزت ببزوغ وانتشار عمارة الحداثة ، فهي تمثل الفترة التي تمتد بين الاربعينات واواخر السبعينات من القرن العشرين والتي كان لها اسبابها العديدة وعواملها المختلفة التي مهدت ودعمت ، بل وشجعت على انتشار عمارة الحداثة العالمية ، لتمثل جسر التواصل مع العالم المتقدم في اعتماد عمارة عالمية انتشرت في مدينة بغداد على ايدي عدد من المعماريين العالميين والعراقيين الذين قدموا من تلك الدول وتشبعوا بأفكار الحداثة ولمسوا تطبيقاتها بشكل عملي ، مما دفعهم الى تطبيقها في مدينة بغداد كمحاولة للخروج عن النمط العمراني التقليدي المتمثل بالنسيج الحضري القديم المتضام والاسلوب العضوي في تخطيط المدينة ، بتشييد عدد غير قليل من أبنية الحداثة عبّرت عن أفكار مصمميها واستخدامهم للمواد الانشائية الجديدة .

تلك الافكار والتطبيقات لاقت العديد من النقد السلبي والايجابي ، فهي تارةً تبدو وكأنها صروح معمارية طبقت أفكار الحداثة بابتعادها عن النسيج المحيط بها واستخدام خطوط نقية واشكال بسيطة والاعتماد على المبدأ الوظيفي ، وتارةً أخرى تبدو كأنها مقحمة على النسيج الحضري دون مبرر لوجودها لتكسر خط السماء بتناقض كبير في مقياسها الانساني مع مجاوراتها من خلال تشييدها كقطع متناثرة غير منسجمة مع بعضها.

يهدف هذا البحث الى إبراز أهم العوامل التي ساهمت في ظهور وانتشار عمارة الحداثة في مدينة بغداد من خلال تناول مراحل نشأة بغداد تخطيطياً واهم المؤثرات المعمارية والاقتصادية والتخطيطية التي حملها المعماريون العراقيون والاجانب على حدٍ سواء .

1 -عمارة الحداثة في بغداد

1-1 نشأة عمارة الحداثة في بغداد :

من الصعب بمكان تحديد بدء ونشوء عمارة الحداثة في بغداد ، بل ان التأشير التقريبي ينسحب اثره على جميع مراحل تطور وظهور الانماط والطرز المعمارية على مر التاريخ. بيد ان كل ذلك لم يتركنا نهيأ للتاويلات والافتراضات غير المدروسة وغير العلمية ، فقد ارتؤي ان تكون الاحداث الجسام التي يمر بها العالم ، والنجاحات الباهرة في حقلي العلم والتكنلوجيا ، كاقترانات لبدايات نشوء عميق في زمن خلفيات تلك التحديدات النسبية والمقترحة. [1]

وتاسيساً على هذا فان فترة عمارة الخمسينات تمتلك موضوعية تسميتها بمرحلة (تأسيس عمارة الحداثة) بالقطر ، كونها الفترة التي اعقبت الحدث الكبير في تاريخ البشرية ، وهو نهايه الحرب العالمية الثانية، وما رافق ذلك من تغير واسع ومتعدد الجوانب في مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية واهمية وانعكاس كل ذلك على العراق ، فضلاً عن بروز ظاهرة مهمة ومؤثرة هي بدء نشاط المعماريين العراقيين وبدء ظهورهم في هذه المرحلة بهذا العدد الكبير نسبياً ولأول مرة .

وقد افرزت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية بالقطر ، ظواهر ثقافية عديدة ، كان لها دور مهم في تاصيل وتحديد مرحله التأسيس ، منها ظاهرة التجمعات الفنية والادبية التي ساعدت على تهشيم التقاليد الثقافية السابقة ، الامر الذي مهد السبيل نحو تسريع توظيف واستثمار الممارسات المعمارية. [2]

واتسمت بداية القرن العشرين في العراق بفترة ركود في الحياة الاجتماعية وجمود الحالة الاقتصادية وعدم ظهور بوادر تغيرهما على مدى عشرات السنين التي سبقتها، مما كرس نمطاً تخطيطياً أبقى المدينة العراقية بشكل عام ومدينة بغداد خاصة ضمن ابعادها المعروفة. فكان لظهور عمارة الحداثة عالمياً وقع واضح على العمارة في بغداد ، إذ تأثر الاكاديميون والمعماريون العراقيون بعمارة الحداثة في الغرب من خلال دراستهم والاطلاع على ما يكتب وينشر . كذلك فان التطورات الاقتصادية والتغيرات الاجتماعية أسهمت بايجاد بيئة جديدة انعكست على النسيج الحضري ، تمثلت بانبثاق نمط معماري جديد وهو (الأبنية متعددة الطوابق) التي لم يألفها المجتمع البغدادي مما ولّد وجهات نظر مختلفة نحو هذا النمط .

أما الفكر التصميمي للعقدين الذين سبقا فترة الخمسينات فقد تمثل بناحيتين اساسيتين هما : التخطيط الحضري والعمارة حيث انطوت على مفاهيم مفعمة بالحداثة . فقد كان فكر التخطيط الحضري بمثابة انقلاب على مفاهيم التخطيط التقليدي الذي اتسمت به مدينة بغداد .

وقد كانت بوادر هذا الانقلاب والتغيير تكمن اساسا في قرار الخروج من حدود المدينة المسورة ، في البدء شمالا نحو (العيواضية) وجنوبا الى (البتاوين) الذي حدث في بداية الثلاثينات ، ثم اعقبه امتداد واسع في جميع الجهات وعلى ضفتي النهر . وبهذا القرار الذي كانت له ارباه الكثيرة اختفى نهائيا نهج النسيج الحضري المتراص ونشأ على تخومه اسلوب تخطيطي جديد قوامه الشوارع المستقيمة العريضة نسبياً. [3]

لم يكن توسيع مديات حدود مدينة بغداد أمراً هامشياً او ثانوياً ، ذلك لأن مساحة التوسيعات التي جرت في الثلاثينات كانت لدرجة كبيرة بحيث شغلت اضعاف مساحة المدينة القديمة المسورة وامتدت لتشمل (الوزيرية والاعظمية ثم العلوية والكرادة الشرقية) ولتمتد في الطرف الاخر من النهر نحو (الكريمات والصالحية وكرادة مريم وعلاوي الحلة). [4]

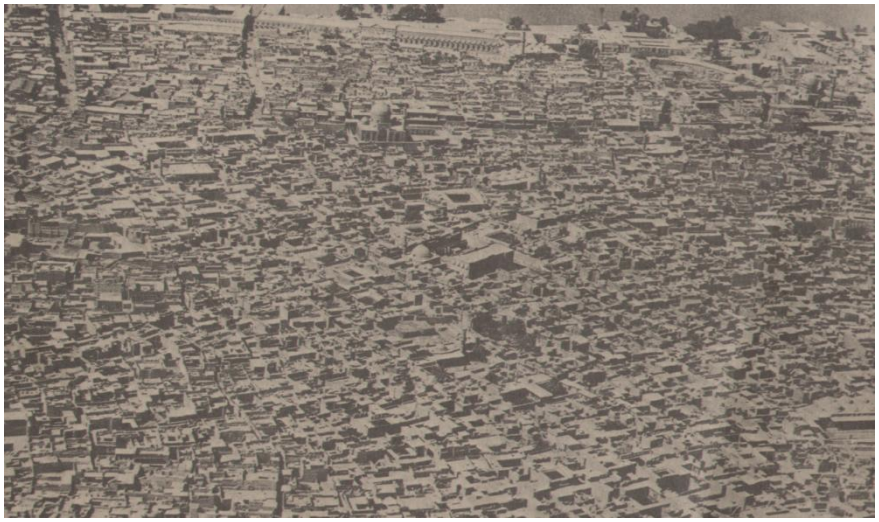

شكل (1) بغداد في الثلاثينات

المصدر: Amanat Al Assima, study on conservation and redevelopment of historical center of Baghdad city BY JCP, 1984, P1.

لقد تأثرت مدينة بغداد إلى حد كبير بطروحات الحداثة ، فأصبحت تنتمي بصورتها – خاصة الجزء المركزي منها– وعناصرها العمرانية إلى أفكار الحداثة ذات التوجهات البعيدة عن الخصائص التصميمية والتخطيطية التي ميزت نسيجها التقليدي ، وفي الوقت ذاته لم تتم عملية اعادة احياء الأبعاد التاريخية

والرمزية التراثية على وفق توجهات العمارة العالمية التي تلت فترة الحداثة. بيد أن التوجهات الحداثوية على مستوى العمارة والتخطيط الحضري لو قدّر لها أن تستمر ، لربما أنتجت عمارة بغدادية نابعة من نسيج حضري حداثوي من ناحية ، ومرتبط بالبيئة العمرانية التي تميز مدينة بغداد من ناحية أخرى .

2 1 نشأة بغداد تخطيطياً و ظهور عمارة الحداثة :

شهدت مدينة بغداد مراحل متعددة في نموها وتطورها كانت استجابة للمتغيرات العمرانية والتخطيطية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، مما انعكس على نسيجها واستعمالات الأرض فيها . وسيتناول هذا الجزء من الفصل الثاني مراحل التطور التخطيطي لمدينة بغداد وفقاً لتسلسل زمني يبتدئ من مطلع القرن العشرين وينتهي بأواخر فترة السبعينات. (5)

1-2-1 المرحلة الأولى من مطلع القرن العشرين حتى أواخر العشرينات:

اتسمت مدينة بغداد بالنسيج المتضام العفوي والتدرج الهرمي للشوارع والازقة التي تنتهي بطرق غير نافذة ، وكانت استعمالات الأرض متداخلة فيما بينها مع وجود مناطق تجارية غالباً ما تتركز في مركز المدينة . ويمثل الاستعمال السكني النسبة الأكبر من بين الاستعمالات الحضرية . ولم يكن هناك بوادر لظهور عمارة الحداثة في هذه المرحلة .

وفي هذه المرحلة بدأ العراق يشهد تحولاً اقتصادياً ،حيث جاءت الزيادة في الموارد الاقتصادية للبلد مع استخراج النفط وازدياد عمليات تصديره عند اكتشافه في نهاية العشرينات (1927) الا ان التصدير جاء بصورة فعلية خلال الثلاثينات بعد ابرام الاتفاقيات بين الدولة والشركات النفطية ، وهذا الامر قد أمن الاحتياجات المالية الضخمة في ذلك الوقت لتشييد مبان عديدة وأغرى كثيرين من المعماريين للعمل في العراق. (6)

1-2-2 المرحلة الثانية من أوائل الثلاثينات حتى أواخر الخمسينات:

شهدت هذه المرحلة تحوّل مدينة بغداد من النمو شبه الدائري الى الامتداد الطولي على محور نهر (دجلة) . وبدأ النظام الشبكي للشوارع بالظهور مع التطورات السياسية التي قادت الى تطورات اقتصادية وعمرانية وتخطيطية تمثلت بنشوء عمارة الحداثة وانتشار أبنيتها ضمن النسيج التقليدي مما استدعى الى تغير في بنية المدينة فشقت الشوارع الجديدة (شارع الرشيد والكفاح والجمهورية – شارع الخلفاء حالياً –). (7)

حاولت المدينة التكيف مع هذا النمط المعماري خاصة في مركز مدينة بغداد الذي طرّزت أبنية الحداثة شوارعه بارتفاعاتها الشاهقة وتفاصيلها الإنشائية وكتلها الضخمة مما أثّر على النسيج القديم من خلال إزالة بعضٍ منه ، فتناقضت الحداثة مع التراث وتنوع خط السماء .

وبدأت بوادر عمارة الحداثة بالظهور في هذه المرحلة كان أهم أسبابها :

1 -عودة الجيل الأول من المعماريين العراقيين :

كان ثمة حدث يتحدد بظهور نخبة من الشباب الرواد من المعماريين ضمن هذه الفترة بشكل فاعل ومؤثر على الساحتين الفنية والمعمارية اذ شهدت هذه المرحلة عودة عدد من الفنانين التشكيليين والمعماريين الى العراق يحملون معهم ذات الافكار والمفاهيم الفلسفية ازاء العمارة التي اشاعتها الانماط والمدارس التي انتشرت في امريكا واوروبا راسمة معالم نهضة تجددية وتدين بالمعاصرة مستنجدة بالجديد من معطيات التكنلوجيا الغربية وما ظهر في ميدان التداول الفعلي من مواد واساليب تنفيذية ، فكان من جراء ذلك ان قفزت سمات جديدة الى واقع المدينة ومجتمعها وتخطيطها الحضري. (8)

فـ(جعفر علاوي) يعود الى القطر في سنة(1940)، و(مدحت علي مظلوم) سنة(1941) وقبلهم كان قد وصل (أحمد مختار ابراهيم) سنة (1935) و(حازم نامق) سنة(1936) و(سامي قيردار) سنة(1939) . ثم اعقبهم (عبد الله احسان كامل)(1943) و(محمد مكية) سنة(1946) ليصل عددهم في نهاية الخمسينات نحو نيف وعشرين مهندساً معمارياً اكثرهم درسوا العمارة في مدارس انكلترا ، واخرون في معاهد الولايات المتحدة وغيرها. (9)

وبحلول الخمسينات تهيأت أرضية خصبة للنشاط المعماري المتمثل بأبنية عمارة الحداثة في النسيج البغدادي . وبدأ خط سماء بغداد بالتغير من خلال ظهور أبنية متعددة الطوابق مثل المبنى الاداري لعمارة (سوفير) في شارع الرشيد (1946) صممه (مدحت علي مظلوم) ، أعقبه انشاء (عمارة الدامرجي) التي نفذها (نيازي فتو) عام (1948) والمكونة من ستة طوابق . وبرغم وجود أبنية متعددة الطوابق مثل (بناية الدفتردار) سنة (1953) المصممة من شركة (انتركونتينينتال الالمانية) والتي اشرف على تنفيذها (عبد الله احسان كامل) – مكونة من 14 طابق– الا ان تأثير (عمارة الدامرجي) كان له وقع خاص عند البغداديين .

2 -تأسيس مجلس الأعمار/ 1950 :

أحدث تأسيس هذه المؤسسة تطوراً مهماً في العمارة العراقية خلال هذه المرحلة، لما كان لها من أهمية في تنظيم العملية البنائية،حيث كان الهدف من تأسيس هذه المؤسسة هو " ضمان استمرار عملية الإنماء والتطوير بخطى ثابتة بعيداً عن تأثير التغيرات الوزارية المتعاقبة ". (10)

وانجز العديد من المشاريع الصناعية والزراعية والاروائية بعد تأسيس مجلس الاعمار أهمها (سد دوكان) و(سد الثرثار) الذي أنقذ بغداد من خطر الفيضان وسمح لبغداد بالتوسع الافقي مما أوجد عددا من النواحي المحيطة بالمدن القديمة ، كما نمت مدن صغيرة جديدة قرب المشاريع الصناعية وعلى طرق المواصلات الرئيسة (11)

وقد استعان مجلس الاعمار بالمخططين الاجانب في اعداد مخططات المدن العراقية مثل مؤسسة (منوبريو Minoprio Spencely & Macfriare) لاعداد مخطط اساس لمدينة بغداد عام(1954) . إذ كان لهذه الخطوة الأثر الفعّال في بدء التفكير بالتخطيط الحضري للمدينة العراقية من أجل النهوض بنسيج المدينة بما يتلاءم مع التطورات الحاصلة في عمارة الحداثة التي انتشرت في الغرب وبدأت بواكيرها بالظهور في بغداد مع مطلع الخمسينات . الا ان هذه المؤسسات لم تعطِ مدينة بغداد حقها في التصميم الاساس الذي اعدته لان النمط الذي اعتمدته في تصاميمها لم ينسجم مع نسيج المدينة القديم فجاء مناقضاً لطبيعة المدينة المتراصة التي تمتعت بها بغداد ، بالاضافة الى انها لم تدرس الترابطات الاجتماعية للمجتمع البغدادي وميزاته .

3 -دعوة مجلس الأعمار للمعماريين الأجانب :

أثْرت هذه الدعوة المشهد المعماري العراقي بأبنية لم يعهدها النسيج الحضري التقليدي ، حيث تميزت بتعددية الطوابق التي كانت تمثل نقلة نوعية في العمارة . حيث طبّق هؤلاء المعماريون الأجانب عمارة الحداثة – التي انتشرت في الغرب – في تصاميمهم في بغداد ، هذا الامر عزّز كفاءة المعماريين العراقيين ، بالاضافة الى مساهماتهم في إلقاء المحاضرات والنقاشات في بغداد .

وكان خيار دعوة المعماريين العالميين للمساهمة في تقصي اجابات لمشاكل العراق العمرانية أمراً مناسباً وصائباً ، وضرورياً أيضاً ، لأن التلاقي مع رموز الخبرة العالمية والاطلاع على مستواها المهني في شقيه التطبيقي والتنظيري ، ظل على الدوام لصيق التطلعات الجادة التي تطمح في رؤية موضع الممارسة المعمارية المحلية مرتقياً الى مصاف الفعالية المعمارية العالمية . ويمتلك العراق تجربة غنية منقطعة النظير في هذا المجال ، كما عدّت بمثابة الحدث الأهم في المشهد المعماري العالمي . إذ قلما اجتمعت نخبة معمارية عالمية في مكان واحد ، كمثل اجتماعهم على الأرض البغدادية. [12]

لقد نفذ عدد من تلك المشاريع مثل (جامعة بغداد) للمعمار (كروبيوس) أما مشاريع (المدينة الرياضية) لـ (لوكوربوزييه)– الذي صمم في 1967 – حالياً لم ينفذ ما عدا قاعة ملعب الشعب الرياضي– و(دار الاوبرا وجزيرة ام الخنازير) لـ (فرانك لويد رايت) فلم ينفذ وبقيت مخططات فقط .

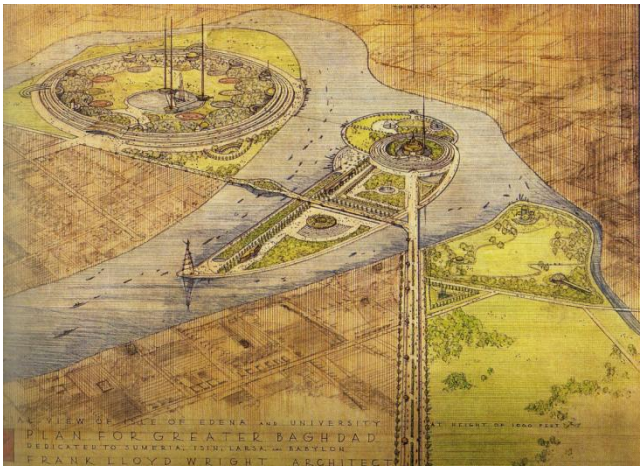

شكل (2) دار الاوبرا وجزيرة ام الخنازير لفرانك لويد رايت

المصدر : السلطاني، د. خالد ، مئة عام من عمارة الحداثة، دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق ، سوريا ، 2009 ، ص 278 .

ورغم ذلك لقيت تلك المشاريع انتقادات كثيرة حيث تصف (د.سعاد عبد علي مهدي) تلك المشاريع "ان بغداد كانت ستصبح أكبر متحف لعمارة الحداثة في العالم، ولكن لا اكثر كانت ستصبح (فسيفساء) من رقع متنافرة الأشكال والأحجام والألوان والطرز على الرغم من جمال كل رقعة بحد ذاتها . ولكن حتى الفسيفساء فيها ما يوحدها، فما الذي كان سيضفي الوحدة هنا ؟ " [13]

ربما لو قُدّر لأبنية عمارة الحداثة الاستمرار في تطورها وتفاعلها مع النسيج الحضري البغدادي – سواء أبنية المعماريين الأجانب او العراقيين – واختطت طريقاً فيه التخطيط الحضري ضرورة وأساس في التصاميم والمخططات ، لكنّا قد وجدنا فعلاً بغداد متحفاً لعمارة الحداثة في العالم لكنه متحف يعكس ثقافة المجتمع البغدادي بإطارٍ حداثي متفاعل مع النسيج الحضري .

4 –زيادة واردات النفط/1952 :

لم يصبح الانماء الاقتصادي محوراً رئيساً لسياسة الدولة الاّ بعد عام 1950 حين هيأت ايرادات النفط المتزايدة الامكانية له ليحتل هذه المكانة . ففي تلك السنة ، أنيط بمجلس الاعمار الاشراف على الانفاق الانمائي الحكومي لتطوير موارد العراق ورفع المستوى المعيشي . وتم تخصيص 70% من عوائد النفط لتمويل المشاريع التي أعدها مجلس الاعمار ، حيث بلغ مجموع المبالغ المخصصة للاستثمار حولي (155) مليون كان (98) مليوناً منها قد خصص لإنجاز مشاريع الري والطرق والجسور والمواصلات والأبنية و (57) مليون لاستصلاح الاراضي الزراعية وبعض الصناعات البسيطة. [14]

وكتب أحد الخبراء الاقتصاديين الذين استقدمتهم الحكومة العراقية في الخمسينات ليقدم تقريره عن التطور الاقتصادي للبلد " أهم شيء بالنسبة للدول النامية التي تحاول اللحاق بسرعة بركب التقدم هو إجتذاب رؤوس الأموال الأجنبية في مشاريع استثمارية محلية ... الاّ أنه بفضل عوائد امتيازات النفط الضخمة الأخيرة فقد أصبح العراق يمتلك الموارد الكافية لتمويل المشاريع المطلوبة ، وباعتبار العراق عضواً في المجموعة الاسترلينية فان له نظاماً نقدياً ثابتاً يدعمه في ذلك الجنيه الاسترليني "[15]

5 –قيام ثورة 14 تموز سنة 1958 :

أدى قيام ثورة 14 تموز التي غيرت نظام الحكم الملكي الى جمهوري وحررت العراق من حلف بغداد والانفتاح على المعسكر الاشتراكي وبروز مفاهيم جديدة باتجاه السياسة الدولية اضافة الى انفتاح المجال الى المحاور السياسية الموجودة في العراق آنذاك لان تسهم في صنع القرار السياسي مما ساعد على توافر فرص عمل كبيرة وزيادة نسبة المهاجرين الى المدن من المناطق المتاخمة لها ، أدت الى زيادة في الرقع السكنية وظهور مجمعات سكنية جديدة في اطراف المدينة وحول المجمعات الصناعية فانعكس ذلك على نسبة الخدمات (المدنية والثقافية والصحية) بسبب الزيادة في عدد سكان المدن وتنامي نسب الحرف الوسطية بشكل ملحوظ .[16]

وبدأت الحكومة بتقويم السياسة الاستثمارية من خلال إعادة تنظيم جهاز التخطيط ، ففي مستهل عام 1959 ألغي مجلس الاعمار ووزارة الاعمار وحل محلهما (مجلس التخطيط الاقتصادي ووزارة التخطيط) [17].

كان لقيام الدولة العراقية تأثير واضح على نتاج المرحلة الثانية من خلال الحاجة إلى أبنية جديدة وتشريع القوانين الخاصة بالعملية البنائية ، حيث أثر النظام الجمهوري على سير عمارة الحداثة ، من خلال الدور الذي لعبه في استملاك الأراضي الخالية وبيعها فيما بعد إلى جمعيات الأفراد والإسكان ، مما أدى إلى تسارع عملية النمو الحضري تسارعاً لم يسبق له مثيل في تاريخ العراق ، فاتسعت الحاجة الى أبنية تتماشى مع الانظمة والقوانين الجديدة .

6 –تأسيس قسم الهندسة المعمارية :

تأسس قسم الهندسة المعمارية ضمن كلية الهندسة التابعة لجامعة بغداد في مستهل العام الدراسي(1959.1958) وكانت أول وجبة متخرجة بدرجة بكلويورس عمارة عام (1964 . 1965). فكان هذا الحدث الاول من نوعه ضمن اختصاصات القطر العلمية والذي تم بمبادرة نخبة العائدين من المهندسين المعمارين الذي تلقوا علومهم في اوروبا وامريكا امثال (د0 محمد مكية) الذي تولى رئاسة القسم ، وكذلك الاساتذة الذين قاموا بالتدريس، منهم (هشام منير وقحطان المدفعي وعبدالله احسان

كامل واحسان بربوتي وناصر الاسدي وحازم التك واسهامات الاساتذة رفعة الجادرجي والفنانين فرج عبود وفائق حسن وهاشم الخطاط وعبد الرحمن الكيلاني والدكتور علي الوردي وغيرهم) . لقد كان لتخرج الوجبتين الاولى والثانية على قلة عددهم (الدورة الاولى 17 طالبة وطالباً والثانية 24 طالبة وطالباً) اسهامات مباشرة في نتاجات فترة الستينات حيث استقطبت المكاتب الاستشارية التي كانت قائمة انذاك جل الكوادر لتغطية مستلزمات التصاميم المتوفرة في تلك الفترة . [18]

تأثر هؤلاء الرواد بصيغ الحداثة والتكوينات المعمارية الاوروبية وكان انبهارهم بالعمارة الغربية ومحاولة تقليدها بادخال التقنية في البناء ، على حساب كثير من القيم والمعايير أحياناً .[19]

وتميزت هذه المرحلة بحدثٍ مثل الأهم في تأريخ البلد الا وهو ثورة 14 تموز وما تبعها من تغيرات أثرت على المجتمع العراقي وتأثرت به في آنٍ واحدٍ مما نتج عنه خلق تكوينات فنية متميزة برزت ضمن النسيج الحضري في بغداد انطوت على احترام البيئة وشواهد الموقع من خلال التعايش مع المجاورات بالرغم من تباين واختلاف هذه المجاورات ومقاييسها العمرانية .

شكل (3) التوسع العمراني لمدينة بغداد

المصدر : www.image.google.baghdad.com

1-2-3 المرحلة الثالثة من أوائل الستينات حتى أواخر السبعينات:

وصلت مدينة بغداد في هذه المرحلة الى نضجٍ عمراني وتخطيطي إعتماداً على التغيرات السياسية و النهضة الاقتصادية التي شهدها العراق- بشكل عام- في المرحلتين السابقتين ، وانتشرت عمارة

الحداثة في معظم مناطقها تنوعت بين أبنية ادارية وتجارية حكومية متعددة الطوابق وبين سكنية خاصة عبرت عن أفكار لمعماريين عراقيين درسوا خارج العراق وجاءوا حاملين في جعبتهم الحداثة التي انتشرت في أرجاء العالم الاوروبي والاميركي .

بيد أن هذه الفترة شهدت انعطافة في عمارة الحداثة في بغداد ، تمثلت بالاسلوب المتعاطف مع التراث البغدادي ، حيث ساد هذا الاسلوب الظواهر الأدبية والفنية والمعمارية من خلال البحث عن خصوصية العمارة العراقية ، فتجسدت بظهور الجماعات الفنية مثل مجموعة (الفن الحديث لجواد سليم).[20]

وتوسعت بغداد بنمطين، الأول طولي على امتدد الطرق الرئيسية والثاني حول نوى وظيفية ومعمارية كالأسواق والجوامع أو تقاطعات الطرق .[21]

ان تغير استعمالات الأرض داخل مدينة بغداد وتغير المفاهيم المتجددة أو اعادة النظر بها تبعاً لمتطلبات الحداثة وفق أُفق ومنظور معماري وتخطيطي جديد، تبعه انتقال الحركة العمرانية من المناطق القديمة التي تمثل النواة المركزية للمدينة العراقية ، قد حدث نتيجة تصارع قوتين هما : القوة الطاردة من

المركز (Centrifugal Force) والقوة المركزية أو الجاذبة للمركز (Centripetal Force) .[22]

شكل (4) البنية العمرانية لمدينة بغداد بعد الستينات

المصدر : www.image.google.baghdad.com

ومن ابرز الاحداث التي عززت من تطور عمارة الحداثة ضمن النسيج البغدادي هي :

1 -تأميم النفط سنة 1972:

أدى تأميم شركات النفط الاجنبية الى زيادة كبيرة في ايرادات العراق النفطية مما دعى الى مواصلة بناء الهياكل الاقتصادية كقاعدة أساسية لاستيعاب متطلبات عمليات التطوير اللاحقة ، وكذلك الاهتمام بالمشاريع الخدمية . حيث تميزت هذه الفترة بضخامة الانفاق الحكومي للاغراض الاستثمارية ، انعكس على تشييد الدوائر الحكومية بطراز الحداثة .[23]

كان لتوفر الموارد المالية دورٌ بارزٌ في عمارة الحداثة وسيرها وتوجهاتها . فلم تنتفِ الحاجة إلى الاستعانة بخبرات الشركات الأجنبية لإنجاز جودة العمل وسرعة التنفيذ ، إضافة إلى دور هذه الموارد في حصول نمو اقتصادي كبير أسهم في إبراز طبقة من أرباب العمل ذوي رؤوس الأموال الكبيرة .

2 -تأسيس المركز القومي للاستشارات الهندسية 1971:

بعد أن باشرت المدرسة المعمارية العراقية الاولى في إعداد وتأهيل وتخريج المعماريين الذين شاركوا في تعزيز مكانة المهنة المعمارية واهميتها في الحياة العامة للمجتمع وأسهموا في انتشارها، كانت الاعمال الهندسية تجري بشكل متصاعد ويزداد تاثيرها واهميتها في عمليات ومهمات انجاز المشاريع الكبيرة والمختلفة التي كانت تتطلبها خطط التنميه والتعمير في العراق ، الامر الذي أدى الى استحداث مؤسسات جديدة تعنى فقط بالعمل الهندسي والمعماري كتأسيس المركز القومي للاستشارات الهندسية والمعمارية واستحداث دوائر تصميمية معنية بمواكبة عملية التصميم والاشراف والتنفيذ للمشاريع العمرانية لهذه الدوائر .[24] فأنجزت تلك المؤسسات العديد من المشاريع البنائية بطراز الحداثة ضمن النسيج الحضري التقليدي فبانَ التغير الواضح بين مقاييس الحداثة وبين بساطة النسيج التقليدي .

لقد توسّع النشاط المعماري عمودياً ، أما النشاط التخطيطي فقد توسّع أفقياً ليغطي مناطق جديدة ومختلفه من بغداد لم تكن معهودة في السابق. فأتسمت المعالجات المعمارية لتلك الفترة بطابع خاص متفرد ، دأب المعماريون العراقيون على تجسيده من خلال الاهتمام لمفردات النسيج الحضري وطبيعة المناخ والمواد الانشائية واستثمار الخبرات البنائية التقليدية كي لا تكون نتاجاتهم مغتربة عن الواقع المحلي .

تلك المؤثرات بمجملها تراكمت لتفضي الى خلق تداخل متشابك ومتناسق من الصروح المعمارية والتطورات التخطيطية الحضرية لمدينة بغداد فضلاً عن المتغيرات الفكرية والثقافية التي سادت المجتمع في تلك الحقبة بسبب تلك المؤثرات .

1-3 التأثير الأجنبي في بغداد:

نظراً للدور الذي لعبه الاجانب في بغداد في فترة الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن العشرين، سيتناول البحث التاثيرات بجوانبها المعمارية والإقتصادية والتخطيطية

1-3-1 معمارياً :

حمل المعماريون الأجانب أفكار الحداثة الغربية معهم لدى قدومهم الى بغداد ، فاتسمت ابنيتهم بتعددية الطوابق واستخدام النوافذ الشريطية والانهاءات الخارجية الجديدة –(اللبخ) بالنورة او الاسمنت – والاستخدام المكثف والواسع للكونكريت المسلح .

ان التغير المفاجيء والسريع في الممارسات المهنية المعمارية في العراق ، كان لا يمكن ان يحدث لولا النجاحات التي احرزتها عمارة الحداثة في العالم ، والتي سعى المعماريون الأجانب لتجسيدها باعمالهم في بغداد .[25] فتظهر تأثيراتهم (المعماريون الاجانب) في تصميم المعمار (كوبر Cooper) لمبنى (مجلس الأمة) في منطقة (كرادة مريم) (1952–1957) .

شكل (5) مجلس الأمة / كرادة مريم ، المصدر: السلطاني، د. خالد ، رؤى معمارية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمّان ، الاردن ،الطبعة الاولى ، 2000 ، ص367.

ويستحضر المعمار (خوسيه لويس سيرت J.L. Sert) في حله المعماري لمبنى السفارة الامريكية في بغداد (1955–1960) قيم وأفكار الموروث البنائي للمنطقة الزاخرة بالارث الحضاري ، ويستند في ذلك الى نماذج العمارة الاسلامية كونها الحافظة الاساسية لبلورة تلك القيم وترسيخ تجاربها البنائية .[26]

شكل (6) مبنى السفارة الامريكية في بغداد

المصدر: شيرزاد ، شيرين احسان ، لمحات من تاريخ العمارة والحركات المعمارية وروادها ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1986 ، ص 115 .

ويمثل مبنى السفارة منجزاً متميزاً لا يشابه تطبيقات عمارة الحداثة من جانب ، الا انه في الوقت ذاته ينتمي اليها في ارتباطه المكاني من حيث المعالجات التصميمية لمحيطها الحضري والاهتمام بالجوانب البيئية مراعاةً لمناخ بغداد المميز الحار والجاف والمشمس .

أما (عمارة الدفتردار) التي صممتها (شركة انتركونتينينتال الالمانية) عام (1953) فهي تكسر خط السماء لتعلو ضمن النسيج التقليدي المتناقض مع تفاصيلها المعمارية البسيطة . وتصف المعمارية (زها حديد) بناية (مجلس الاعمار) – وزارة التخطيط حالياً– للمعمار (جيوبونتي) التي صممها عام (1956) بأنها " سفينة في نهر دجلة " [27].فينساب المبنى بانسيابية النهر .

اما القاعة الرياضية– الواقعة قرب ملعب الشعب الدولي– التي صممها (لوكوربوزييه) في عام (1956) ونفذت اواخر السبعينات ، فتمثل نموذجاً معمارياً متميزاً لعمارة الحداثة في بغداد بخطوطها النقية وكتلتها الصلدة التي تنسجم مع النسيج المحيط بها من الناحية الوظيفية لانها لم تصمم ضمن النسيج السكني .

شكل (7) القاعة الرياضية ضمن مجمع ملعب الشعب الدولي في بغداد

المصدر: الباحثة بالاعتماد على www.google-image.com

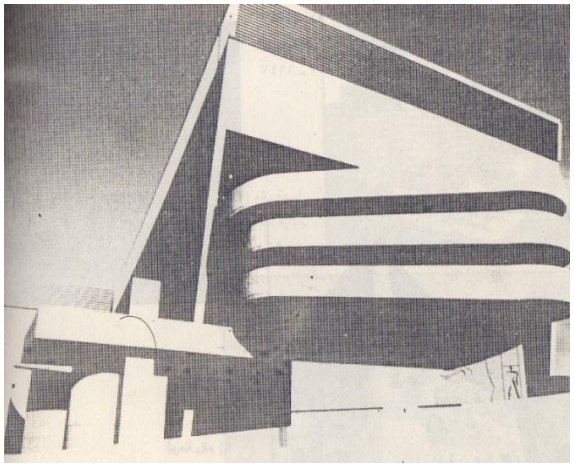

شكل (8) القاعة الرياضية للوكروربوزييه

المصدر: شيرزاد ، شيرين احسان ، لمحات من تاريخ العمارة والحركات المعمارية وروادها ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ،1987 ، ص 106 .

يتوق (فالتر غروبيوس (1883–1969) Walter Gropius) ، مصمم (جامعة بغداد) في الجادرية ، الى تكريس قناعاته التصميمية ، عبر نظام تخطيطي معبر ينطوي على تآلف عناصر تخطيطية متماثلة في لغتها المعمارية مع عناصراخرى تتسم معالجاتها التصميمية على قدر كبير من التميّز والاثارة . وهذا التمازج المفعم بالتشويق بين العادي والاستثنائي ، وبين المألوف والنادر ، هو الذي يجعل من مخطط (جامعة بغداد) : حدثاً تصميمياً على جانب كبير من الاهمية والريادة . ورغم تلك الاهمية الفائقة التى اقترنت بظهور مخطط الجامعة كحدث تصميمي مرموق في منجز عمارة الحداثة ، لم يحظَ بقسطٍ وافرٍ ومستحق من الدرس والنقد الموضوعيين من الاوساط المهتمة بالشأن المعماري ، تليق بمكانته المعمارية وانجازه التصميمي .[28]

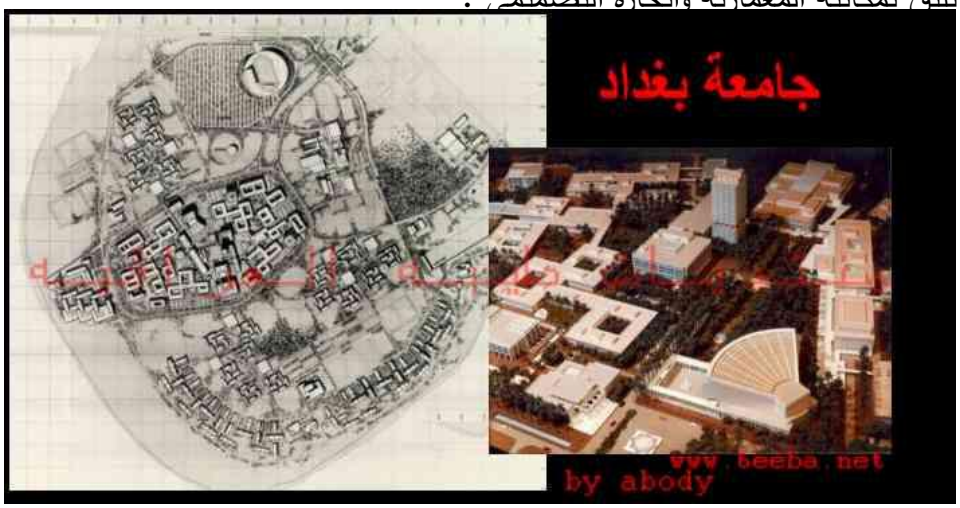

شكل (9) مخطط جامعة بغداد / الجادرية

المصدر: www.google-image.Baghdad

حين كلف (غروبيوس) عام (1957) بالتصميم ، كان مشروع الجامعة وقتذاك يمثل أحد المشاريع المهمة والرئيسة حيث سعى مع فريقه التصميمي (تاك TAC " المعماريون المتعاضدون" The Architects Collaborative) لان يكون التخطيط المعد للجامعة مناسبة لاعلان قناعات معمارية جديدة[29]، تناسب الدور الريادي الذي لعبته عمارة الحداثة في بغداد وتأثيرها على المشهد البغدادي . ورغم ان (غروبيوس) استقى مخطط (جامعة بغداد) من مخطط (مركز هارفرد للدراسات العليا) بالولايات المتحدة الاميركية (1949)[30] ، الاّ أن التأثير المكاني لمخطط الجامعة برز بشكل واضح في المعالجات التصميمية الحضرية ، فتفاعل ابنية الجامعة مع محيطها الحضري ظهر في استخدام الجدول المائي المحيط بالأبنية لمراعاة البيئة البغدادية من حيث المناخ ولمحاكاة نهر دجلة الذي شيدت الجامعة بموازاته، تلك العناصر أثْرت المشهد التخطيطي وعناصره المعمارية المميزة البارزة كبرج الجامعة ومدخل الجامعة ضمن نسيج تخطيط مكوناتها.

لقد ترك التأثير الأجنبي المعماري بصمة واضحة على التخطيط الحضري لمدينة بغداد وأسهم في إثراء عمارة الحداثة ليفتح الطريق أمام المعماريين العراقيين لتكملة المسيرة التي بدأوها.

2-3-1 إقتصادياً :

على الرغم من أن الحكومة العراقية بعد ثورة (14 تموز) قد اختطت لها سياسة اقتصادية تستهدف النهوض بإقتصاد البلد ، الا ان هذه السياسة كانت عاجزة – بحكم عوامل التخلف الاقتصادي – عن تحرير الاقتصاد الوطني من التبعية للرأسمال الاحتكاري الأجنبي والتي تتمثل قبل كل شيء في الاعتماد الكلي على عائدات النفط المتأتية من استغلال ثروة البلاد النفطية بأيدٍ أجنبية .[31]

أثّرت التبعية الاقتصادية الناجمة عن هيمنة القطاع النفطي الأجنبي على مقدرات التطور الاقتصادي ، وكانت الحكومة العراقية قد بدأت بالتفاوض مع شركات النفط الأجنبية بشأن إحتساب كلفة انتاج النفط وتحديد العناصر التي تتألف منها تحديداً يضمن للعراق حقوقه. لذا أصدرت الحكومة قانون رقم (80) لسنة (1961) نص على استرجاع جميع الاراضي الخاصة بحقول النفط غير المستثمرة الا انه لم يطبق بشكل فعلي ، ثم اصدرت في عام (1964) جملة من القوانين نصت على تأميم (30) شركة صناعية وتجارية وجميع البنوك الخاصة التجارية العراقية والاجنبية وشركات التأمين ومنحت الحكومة سلطة حصر استيراد المواد التي ترتأيها والاتجار بها .[32] وقد تشكلت المؤسسة العامة للصناعات الهندسية والمؤسسة العامة للصناعات الانشائية وهي تابعة للقطاع العام بموجب قانون رقم (90) لسنة (1970) ، فكان لهما تأثيرٌ مباشرٌ على مجمل الحركة العمرانية .[33]

الا انه في عام (1970) ، وبغية تشجيع استثمار الرأسمال الأجنبي أصدر (مجلس قيادة الثورة) قراراً سمح للأجانب غير المقيمين بادخال رساميلهم بحرية ويشترط ان يسهم الرأسمال العراقي في الشركات الأجنبية بما لايقل عن 51% من مجموع رأس المال.[34]

ان هذه الخطوات التي حررت البلد من سيطرة الشركات الاجنبية على القطاع النفطي – الذي يمثل الاهم والاكثر تأثيراً على جميع القطاعات– ساعدت على الالتفات الى الواقع الحضري والعمراني الذي اتسم بالركود نتيجة للركود الاقتصادي ، حيث انتشرت الايدي العاملة العراقية وازداد دخل الفرد وتوفرت فرص العمل ، كل ذلك انعكس على النهضة العمرانية . فالتطور الاقتصادي وتحكم الدولة العراقية بالثروات أدى الى الاتصال بالعالم مما أسهم في التواصل المعماري المتمثل بعمارة الحداثة التي حملها الرواد العراقيون الى بلدهم عند عودتهم ومن خلال توفر المواد الانشائية التي وفرتها المؤسسات الحكومية .

3-3-1 تخطيطياً :

نظراً لنقص الكادر الفني والتقني والمخططين المحليين الكفوئين في فترة الخمسينات من القرن الماضي ، فقد تعثر وضع تصميم اساسي لمدينة بغداد من أجل السيطرة على التوسع والنمو العمراني ، كذلك تأخر اعداد تصاميم تفصيلية تساعد على تطور النسيج الحضري . لذا تم الاستعانة بمخططين أجانب لإعداد مخطط أساس لمدينة بغداد يحدد بموجبه الضوابط التي تكون علاجاً للجوانب السلبية المؤثرة على الحالة العمرانية للمدينة.[35] تمثلت تلك المخططات بمخطط (مينوبريو ، سبنسلي وماكفارلين , Minoprio Spencely and Macfarlane) من المملكة المتحدة عام (1956) ،حيث يتألف المخطط من شبكة للطرق الرئيسة ومبانٍ عامة جديدة وتصاميم معمارية للمراكز الحكومية والمدنية مع تخصيص منطقة صناعية جنوب بغداد.

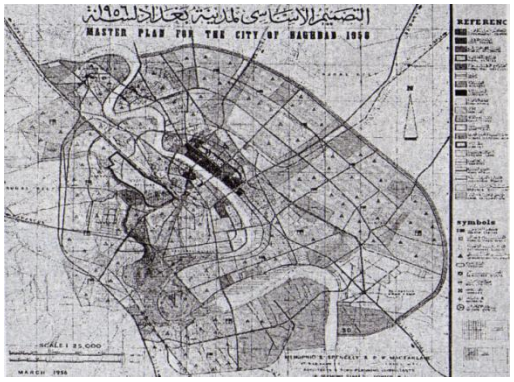

شكل (10) مخطط مينوبريو و ماكفارلين لمدينة بغداد

المصدر : الزبيدي ، د. شاكر سلمان ، دراسة شبكات النقل لمدينة بغداد بين التصميم والتنفيذ ، المنظور العمراني لمدينة بغداد ،مطبعة دار الحكمة ، بغداد ، 1991 ، ص 359 .

من سلبيات هذا المخطط ان الشركة لم تدرس بدقة واقع المجتمع البغدادي وأهمية الحفاظ على تراثه بالاضافة الى ان المخططات لم تستثمر نهر دجلة ، ولم تتضح فيها حركة المشاة بل ركزت على شق الشوارع العريضة التي لاتتناسب مع النسيج التقليدي لبعض الاحياء القديمة .

اما مؤسسة (دوكسيادس وشركاه Doxiades and Associates) من اليونان ، فقد أعدت مخططاً لمدينة بغداد عام (1959) تميز بانه مستطيل الابعاد (31 x 18 كيلو متراً) مكون من شبكة تخطيطية مقحم على المدينة متجاهل الخصائص الطبيعية ، واقترح شق ثلاث قنوات احداها (قناة الجيش) .[36]

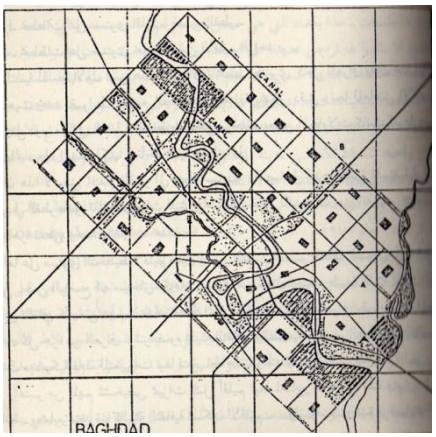

شكل (11) مخطط دوكسيادس لبغداد

المصدر: الملاحويش، عقيل نوري، العمارة الحديثة في العراق– تحليل مقارن في هندسة العمارة والتخطيط – ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1988، ص 63.

اختلف هذا المخطط عن سابقه بكونه لم يتجاهل النهر وكانت مساحة التطوير اكبر من سابقه وتم تصميم تفاصيل بعض المناطق مثل اسكان غربي بغداد .

1-4 التأثير العراقي في بغداد:

كانت ظاهرة البحث عن الخصوصية* العراقية من جهة ، والفردية ضمن العراقية من جهة اخرى ،عملية واضحة تطفو على سطح الخلافات الايدلوجية وعلى اساليبها التصميمية بشكل واضح ، كما ان المتتبع للحركة الفكرية المعمارية العالمية يلاحظ تبلور اتجاهات جديدة في منتصف ونهاية الستينات بدأت تأخذ اهتماما واضحا من بعض المهتمين والباحثين العراقيين.[37]

1-4-1 معمارياً :

كان لعودة المعماريين العراقيين من الخارج الأثر الأكبر في اضفاء هيبة عمارة الحداثة التي شيدوها ضمن النسيج البغدادي التقليدي ومحاولاتهم لتطويع التقنيات الجديدة لاستخدامها في خلق عمارة حداثة عراقية يمتزج فيها التأثير العالمي على عمارة الحداثة في بغداد والاستلهام من موروث العمارة المحلية التقليدية .

وبانحسار بعض هذه المحاولات وامتداد مساحة المؤثرات الفكرية والعملية ظهرت محاولات تتسم بالتخبط لبعض الاعمال المعمارية ،الامر الذي قاد الى ان يلتفت فيه بعض المعماريين الى الخلف مستنجدين بالخزين الكبير لمفردات العمارة المحلية فبرزت على السطح محاولات تنم عن استساغة معلنة لترويض بعض مفردات التراث وتطويعها لتتعايش مع الافكار السائدة آنذاك فكانت بداية البداية حركة معمارية تلتزم بالهوية المحلية وتفردها في محصلة بارزة باتجاه خلق مدرسة عراقية .[38]

فتتسم جميع المباني التي صممها (مدحت علي مظلوم) بخاصية تعبيرية واضحة ناجمة عن الامكانية والقدرة المعمارية في التلاعب بالكتل الحجمية للمبنى ، كما في (سينما الارضروملي) في منطقة (علاوي الحلة) سنة (1947) ومبنى (كلية الاقتصاد والسياسة) عام (1956). [39]

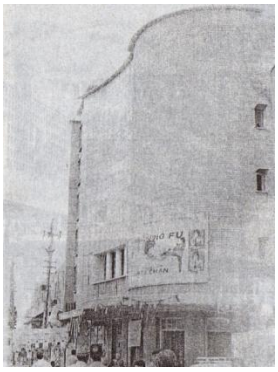

شكل (12) سينما الارضروملي

المصدر : السلطاني، د. خالد، رؤى معمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،عمّان، الاردن ، الطبعة الاولى، 2000، ص389.

أما (نيازي فتو) ، فقد قام بتنفيذ جريء لمبنى اخر بعد(عمارة سوفير) لـ(مدحت مظلوم) وهو (عماره الدامرجي) التي نفذها سنة (1948) وفي هذه المرة وصل عدد طوابق المبنى الى رقم خيالي (ستة طوابق) الامر الذي اكسب المبنى شهرة واسعة في كل ارجاء القطر.

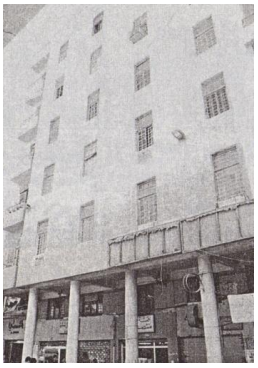

شكل (13) عمارة الدامرجي

المصدر: مردان ، تارا عبد الرزاق علي ، العلاقة بين الطراز والحركة في العمارة وأثرها في التصميم على الاعمال المعمارية المعاصرة في العراق ، رسالة ماجستير ، كلية الهندسة ، جامعة بغداد ، 2005 ، ص 95.

وشهدت العمارة في بغداد دخول منظومات انشائية جديدة كمنظومات كاسرات الشمس (LOUVERS) وظاهرة تغليف المباني بستائر وشاشات (SCREEN) مما اكسبت واجهات المباني قوة وتنوعاً في التفاصيل المعمارية، فضلاً عن كونها معالجات بيئية تراعي البيئة البغدادية الحارة .كما ان ظهور الاساليب الانشائية التي تعتمد على تسقيف فضاءات واسعة دون الحاجة الى أعمدة واستخدام وسيلة الانتقال العمودية بين الطوابق المتعددة (المصاعد الكهربائية) أضحت من سمات أبنية الحداثة التي اتسمت بها بداية الخمسينات من القرن الماضي .

بينما تميز اسلوب المعمار (محمد صالح مكية) بالتعاطف مع التراث في توجهاته لعمارة الحداثة فيتم صهر التكوينات التراثية ضمن الكتل البنائية لأبنيته التي أدخل اليها التكنولوجيا وأساليب الانهاءات الجديدة ودمج الحداثة مع التراث لتنسجم العمارة مع النسيج المحيط بها من خلال استخدام الاقواس والتغليف بالطابوق .

واهتمت عمارته بالريازة الاسلامية لاعمال كان قد صممها تجسدت بصورة ملموسة عند تكليفه باعداد تصاميم توسيع جامع الخلفاء في بغداد(1965 – 1968) ومن ثمة مبنى كلية الفقه ببغداد (1967) .[40]

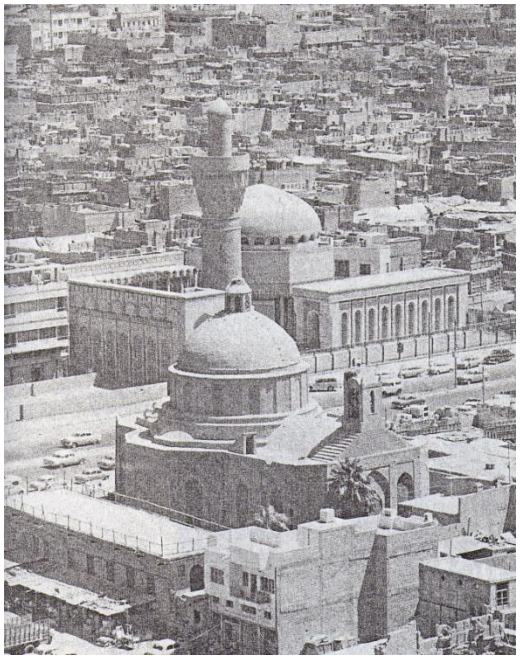

شكل (14) توسيع جامع الخلفاء

المصدر: الراوي ، خالد ثابت ، عمارة قحطان عوني – دراسة تحليلية وتوثيقية – ، رسالة ماجستير ، كلية الهندسة ، جامعة بغداد ، 1990 ، ص 40.

إنَّ تطلع (قحطان المدفعي) نحو عمارة بطابع متميز ذات نكهة خاصة ومتفردة ، أدى به لإتخاذ (التعبيرية) نهجاً معمارياً ، حيث يمكنه الدنو من مراميه في ايجاد تكوينات تتسم بالديناميكية ولاتمثل

اقحاماً على نسيج البيئة المعمارية ، بل يرتقي الحل المعماري لديه ليكون ناتجاً عن دراسة وتحليل عوامل اقتصادية واجتماعية وعوامل تأريخية وعمرانية .[41]وتميزت اعماله بالتنوع ضمن النسيج فمنها ما يحاكيه بمفردات تراثية ومنها ما يمثل انقطاعاً عن النسيج الحضري .

من ابرز انجازاته مسجد (الست نفيسة) عام (1954) و(مصرف الرهون)- بالاشتراك مع عبد الله احسان كامل- عام (1958) و مبنى (جمعية الفنانين العراقيين) عام (1964) و مبنى (متحف التاريخ الطبيعي) عام (1965) عمارة (شارع الخلفاء) عام (1967) و (وزارة المالية) عام (1978) .

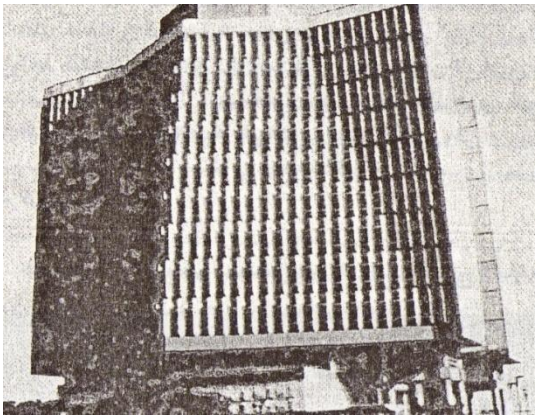

شكل (15) وزارة المالية

المصدر: مردان ، تارا عبد الرزاق علي ، العلاقة بين الطراز والحركة في العمارة وأثرها في التصميم على الاعمال المعمارية المعاصرة في العراق ، رسالة ماجستير ، كلية الهندسة ، جامعة بغداد ، 2005 ، ص 108.

وكان المعمار (رفعة الجادرجي) رائد التطور في اسلوب التراثية التجريدية الذي استطاع ان يسمو الى درجة جيدة ما برحت بعضها تتعثر في توليد خصوصية عراقية شريطة أن تكون النتاجات صادقة مبدعة لاقشرية سطحية ، حيث انتهج اسلوب (الباوهاوس) المعتمد على العلاقة بين الحرفة والفن ، وكان لعمله في (وزارة الاوقاف العراقية) التي تتعامل مع الأبنية التراثية الأثر الأكبر في انقلاب اسلوبه من الحداثة الى الاهتمام بالتراث .[42]

وتتضح لمساته التراثية في تصميم (وزارة البلديات) – في مسابقة معمارية – (1965) و(مبنى المجمع العلمي العراقي) (1965) و(مديرية انحصار التبوغ) (1967) و (مركزالاتصالات) (1971) التي لم تتوانَ في إضافة الاقواس (رمزاً للتراث) .

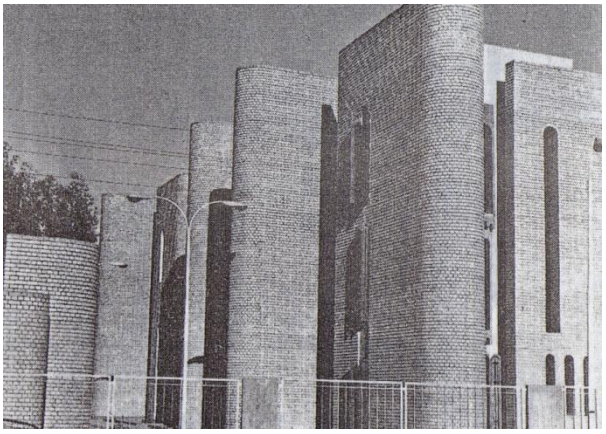

شكل (16) مديرية انحصار التبوغ

المصدر: جدو ، ينار حسن ، مناهج النقد المعماري وتطبيقها على العمارة العراقية المعاصرة للفترة مابين (1950–1980) ، رسالة ماجستير ، كلية الهندسة ، جامعة بغداد ، 1993 ، ص 100 .

تمخضت الفترة التي تزامنت مع عودة المعماريين العراقيين الى القطر في أواخر الاربعينات عن انجازات معمارية عراقية ، مثّلت الأهم في تاريخ العمارة العراقية . فتنوعت بتنوع الافكار والأساليب المستخدمة لتطبيقها مع الاحتفاظ بالتيار الأساس الا وهو تيار (الحداثة) ، منهم من طبق البساطة في الانشاء ، ومنهم من استخدم العناصر التفصيلية بشكل متكرر غير رتيب ، ومنهم من استنسخ الحداثة العالمية ليزرعها في بغداد ، وآخرون مزجوا التراث بالحداثة مع مراعاة الظروف المناخية . كل تلك الأعمال أثْرت النسيج البغدادي في فترة انتعاشه الاقتصادي وأسهمت في إرساء قواعد لمفهوم (العمارة) وغيرت من خط السماء الافقي بالارتفاعات المتميزة بقوة خطوطها ودقة تفاصيلها وجمال تراثيتها ، وشاركت في ايجاد وعي ثقافي بين الناس بأهمية العمارة وليس أهمية الأبنية . فأضافت مقاييس جديدة للشارع ، رغم ابتعادها عن المقياس الانساني .

الا أننا لاينبغي ان نتغاضى عن الهفوات التي رافقت تلك المنجزات ، كان أبرزها التعاطي مع الابنية باسلوب منفرد ومنفصل عن النسيج المحيط بها مما اثّر على استعمالات الأرض وحركة المركبات والسابلة ، فمعظمها أبنية ادارية تحتاج الى مواقف للسيارات والى خدمات بنى تحتية اضافية . بالاضافة الى الافتقار الى التداخل بين عناصر المشهد الحضري الذي امتزجت فيه ابنية الحداثة بالابنية التقليدية . كان معظم رواد عمارة الحداثة في بغداد يرومون أن تكون أبنيتهم صروحاً ذات طابع يميزهم عن غيرهم ، هذا الأمر أدى الى قلة الانسجام بين أبنية الحداثة التي تشيد في الشارع أو المنطقة نفسها، أي ان كل مبنى ينزع لتاكيد هيبته وابراز تفاصيله بعيداً عن مفهوم الانسجام والتوافق مع مجاوراته من أبنية الحداثة .

1-4-2 إقتصادياً :

إن الاقتصاد العراقي اعتمد بشكل كبير على الموارد المتأتية من النفط لأغراض التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وبعد مرحلة (مجلس الاعمار) تم اعداد خطط اقتصادية خمسية من أجل النهوض بالواقع الاقتصادي .

فأعدت أول خطة شملت الفترة (1951-1956) ركزت على برامج مجلس الاعمار الاستثمارية ، واشتملت الخطة الثانية (1955-1960) على تطوير الطرق والجسور ، ففي عام (1957) تم بناء جسر يربط بين منطقتي (الكاظمية) في جانب الكرخ و(الأعظمية) في جانب الرصافة من بغداد سمي (جسر الأئمة) و ثم تلاه تشييد جسر (الجمهورية) و(الجسر المعلق) – جسر 14 تموز – حيث مثلت انتقالة في تخطيط النسيج البغدادي .[43]

وبعد ان تولت وزارة التخطيط مسؤولية اعداد الخطط الاقتصادية شكلت دائرة تعنى بالبحوث الاقتصادية ، فاتسمت تلك الخطط بالشمول لانها تضمنت جوانب الاستثمار والانتاج والعمالة وتنفيذ مجموعة مشاريع إعمارية كانت أبنية عمارة الحداثة المنفذة منها .

ثم صدرت الخطة الاقتصادية الخمسية (1961-1965) التي ركزت على مضاعفة الدخل القومي للبلد وهو ما لم تستهدفه الخطط السابقة. وبرز قطاع المباني والخدمات ليأخذ الدور الرائد فيما تم تنفيذه حتى بلغ نسبة (42%) من مجموع مصروفات الخطة .[44]

أما في القطاع الحضري فكان التوقيع المكاني للاستثمارات قد تميز بالتركز في أماكن دون غيرها، خاصةً المراكز الحضرية الرئيسة كبغداد والموصل والبصرة ممثلة بالاستثمار في الخدمات والمباني . ولعل أهم ما أتبع من معايير في توقيع الأنشطة والمشاريع الاستثمارية هو التأكيد على الكفاءة الفنية للاستثمار وبما يمكن الحصول عليه من وفورات اقتصادية، على حساب زيادة الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين مناطق القطر. ويُقدر ما استقطبته كل من بغداد والبصرة والموصل ثلثي استثمارات فترة الخمسينات، وأن أغلب تلك الاستثمارات تركزت في محافظة بغداد ، الأمر الذي عمّق من هيمنتها الاقتصادية والحضرية وبروزها بشكل أكبر كمدينة طاغية ضمن التسلسل الهرمي للهيكل الحضري .[45]

وركزت الخطة الاقتصادية (1965-1969)على تحقيق التوازن في معدلات النمو للقطاعات الاقتصادية المختلفة ذات الصفة الحضرية (الصناعة، والمباني والخدمات، والنقل والمواصلات) لتصل نسبة الاستثمار فيها إلى (81%) من أجمالي الاستثمارات المنفذة مما أسهم هذا الأمر في انتعاش المراكز الحضرية [46]

ومن أبرز سمات خطة التنمية القومية (1970–1974) هو ضخامة الانفاق الحكومي التي سمحت بتحقيق معدلات نمو عالية فتولدت قناعة بأن العراق في مرحلة اختراق لعنق زجاجة التخلف ودخوله مرحلة الانطلاق في طريق التنمية فتميزت بشموليتها أكثر من الخطط التي سبقتها .[47]

تعدُّ خطة (1976–1980) من بين أهم الخطط التنموية وأكثرها تأثيراً في دفع عملية التنمية في القطر، كونها جاءت في ظروف سياسية واقتصادية مناسبة ومستقرة، لصالح البناء الاقتصادي والاجتماعي والعمراني، خاصةً بعد تأميم ثروة العراق النفطية ، وارتفاع أسعار النفط، إذ كانت (90%) من استثمارات هذه الخطة معتمدة على إيرادات النفط، وكانت خطة انفجارية طموحة ، بلغت تخصيصاتها أضعاف الخطة السابقة[48].

وبرغم التباين في التخصيص المكاني للاستثمارات لكنها أخذت طابعاً أكثر انتشاراً ضمن ستراتيجية مكانية تقوم على إيجاد أقطاب تنموية موازية لقطب النمو في بغداد .[49]

كان لهذه الخطط الاقتصادية الأثر الواضح على مجمل الفعاليات الاقتصادية في بغداد ، فبسبب تزايد التخصيصات للقطاعات الخدمية ، نشطت الحركة التجارية مما حفز على تغيير استعمالات الارض الحضرية خاصة في مركز مدينة بغداد لتتحول معظمها الى تجارة وأعمال ، وعزز ذلك التزايد الملحوظ في تشييد أبنية عمارة الحداثة التي شيدت نتيجة لتزايد التخصيصات للاستثمارات العمرانية ضمن النسيج الحضري ، كذلك فان نمو الاقتصاد الوطني أسهم في دخول مواد انشائية جديدة للقطر وازدادت الايدي العاملة في مجالات البناء ، كل تلك العوامل نهضت بعمارة الحداثة وتفاعلت مع استعمالات الارض لتغير من هيكلية النسيج الحضري في بغداد.

1-4-3 تخطيطياً :

يمكن إعتبار تصميم الجامعة المستنصرية في بغداد عام (1964) حدثاً معمارياً وتخطيطياً فريداً في نشاط المعمار (قحطان عوني) المهني ، ذلك لأن لغة العناصر التكوينية للمشروع ومقياسه الضخم والمعالجات التفصيلية للأعمال الآجرية[50]، واكبت التطور الحاصل في عمارة الحداثة في بغداد لكن على مستوى التخطيط الحضري مع احترام عالٍ لرموز البيئة البغدادية .

يقع مشروع (الجامعة المستنصرية) في الجزء الشمالي الشرقي من مدينة بغداد (شارع فلسطين) ، لهذا الموقع أهمية متزامنة مع تأريخ بغداد العمراني ، إذ أن منطقة (الباب المعظم) التي تبتعد عنه قليلاً كانت مركزاً لكثير من المؤسسات الحكومية والثقافية مثل (وزارة الدفاع) و(مجمع مدينة الطب) و(كلية الهندسة) .[51] وأسهم موقع الجامعة في تغيير استعمالات الأرض من سكنية الى تجارية مما سبّب الكثير من المشاكل التخطيطية والعمرانية في استعمالات الأرض وسبب مشاكل بيئية ومشكلة النقل والمرور

وتشوهات بصرية للأبنية التي تداخلت في استعمالاتها فضلاً عن مشكلة الضغط على خدمات البنى التحتية .[52]

وأعتمد التخطيط العام على مبدأ المحورية التي تمتد بين الطرفين الأبعد للموقع وتتوزع الفعاليات على امتداد المحور الطولي والمحور العرضي . واستمد المصمم شكل المبنى بشكل حرف (U) المتقابل الذي يبدو وكانه مربع مشطور الى نصفين من تخطيط أحياء بغداد القديمة. فعلى الرغم من اعتماد المصمم على الارث المحلي في معالجات الأبنية وفي التوزيع التخطيطي ، فقد كانت له خصوصية وظيفية .

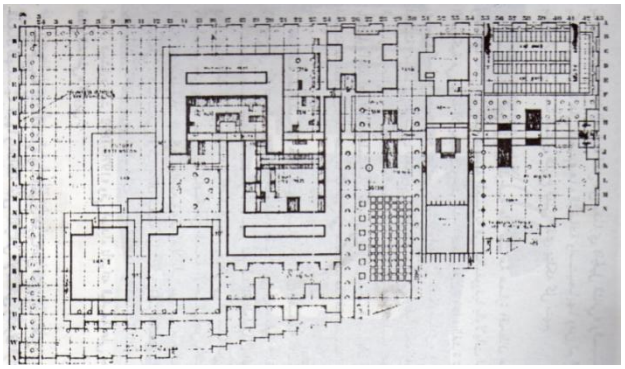

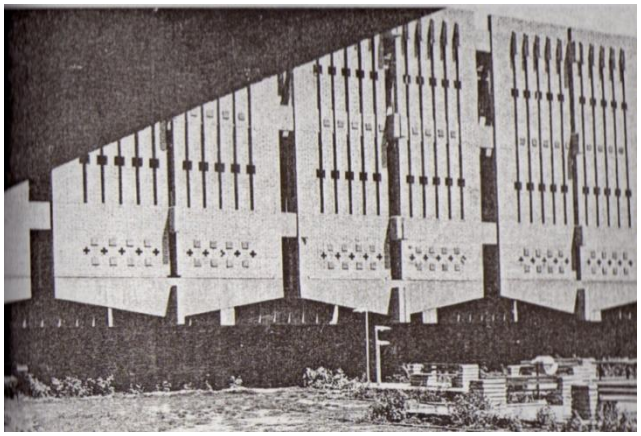

شكل (17) مخطط وأبنية الجامعة المستنصرية

المصدر: الراوي ، خالد ثابت ، عمارة قحطان عوني – دراسة تحليلية وتوثيقية – ، رسالة ماجستير ، كلية الهندسة ، جامعة بغداد ، 1990 ، ص 111 .

أما المشروع التخطيطي الآخر فهو (مجمع المركز المدني) في بغداد للمعمار (هشام منير) عام (1975) والذي اشتمل على تصاميم أبنية الحداثة . شيد في المركز المدني لمدينة بغداد وتضمن مبنى (أمانة العاصمة) ومبنى (اسالة الماء) وعدداً من المباني الخدمية .

حيث شّكل بمجموعه مشروعاً تخطيطياً في قلب العاصمة وكانت تأثيراته ايجابية على المجاورات من المباني ، فقد توزعت بين تجارية وخدمية ومناطق اعمال فلم يكن مقحماً عليها من الناحية الوظيفية ، بل أضاف لها تكاملاً اقتصادياً من خلال خلق منطقة جذب للأنشطة الادارية والتجارية فكانت منطقة متخصصة بعمل محدد مما نظّم حركة المترددين على هذه المنطقة .

شكل (18) موقع المركز المدني في شارع الخلفاء

المصدر : الباحثة بالاعتماد على www.google-image.com

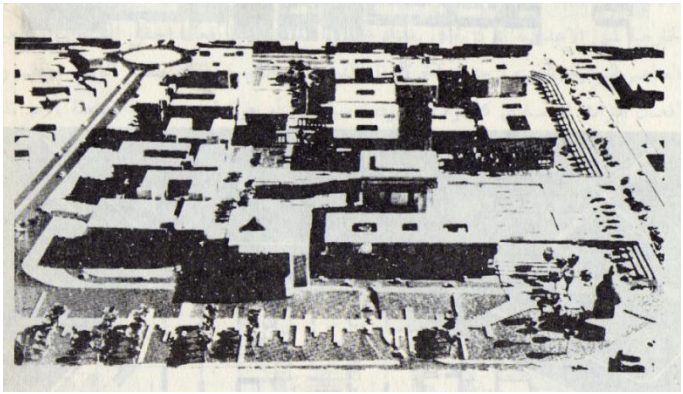

شكل (19) مجمع المركز المدني

المصدر: الملاحويش ، عقيل نوري ،العمارة الحديثة في العراق– تحليل مقارن في هندسة العمارة والتخطيط – ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1988 ، ص 265

التأثيرات / المستويات	التأثير الأجنبي في بغداد	التأثير العراقي في بغداد
معمارياً	استنساخ عمارة الحداثة في الغرب وزرعها في نسيج بغداد التقليدي بارتفاعاتها الشاهقة وخطوطها الحادة وكتلها الصلدة وموادها الانشائية الجديدة .	استلهام مفردات التراث وتوظيفها في واجهات أبنية الحداثة وتطويع الكتل البنائية لخق انسيابية في الكتل ومزج المواد الانشائية الجديدة بعناصر تراثية زخرفية قديمة.
إقتصادياً	هيمنة الرأسمالية الاحتكارية الاجنبية على مقدرات التطور الاقتصادي .	تحقيق تقدم اقتصادي بعد تأميم النفط واعتماد الخطط الخمسية.
تخطيطياً	تجاهل الخصائص الطبيعية لمدينة بغداد والتداخل الاجتماعي بين سكانها بتخطيط شبكة منتظمة الابعاد تخلو من الانسيابية منفصلة عن النسيج البغدادي المتضام .	الاهتمام بتخطيط مجمعات متخصصة وظيفياً .

جدول يوضح مقارنة بين التأثيرين الأجنبي والعراقي لعمارة الحداثة على مدينة بغداد بالمستويات الثلاثة المعمارية والاقتصادية والتخطيطية

المصدر: الباحثان

الاستنتاجات :

- تميزت مدينة بغداد بأنها من أكثر المدن العربية التي تقبلت أفكار الحداثة وطبقتها في عمارتها تراوحت بين أعمال المعماريين الأجانب الذين وجدوا فيها مكاناً خصباً لعمارة الحداثة وبين أعمال المعماريين العراقيين الذين درسوا مفهوم الحداثة في اوروبا وأمريكا وحملوا في جعبتهم تلك الأفكار وزينوا مدينة بغداد خاصة الجزء المركزي منها دون مراعاة النسيج المحيط بها .
- أثّرت عمارة الحداثة بشكل مباشر على مورفولوجية مدينة بغداد من حيث تغير المخطط العام من خلال شق الشوارع وتغير استعمالات الأرض التي ساد فيها الاستعمال التجاري والاداري على حساب الاستعمال السكني والنمط المعماري الذي مثّل تواصلاً مع الحداثة العالمية بكتلها البسيطة وواجهاتها ذات الخطوط الافقية وارتفاعاتها غير المعهودة .
- كان تأثير عمارة الحداثة في بغداد محدوداً ، لقِصر الفترة الزمنية التي ظهر وانتشر فيها ، ولقلة المشاريع التخطيطية التي تزامن ظهورها مع الحداثة ، فمن الصعب في تلك الفترة الحكم عليها بالنجاح أو الفشل .
- تغيرت عناصر المشهد الحضري لمدينة بغداد، نتيجة لانتشار أبنية الحداثة على جانبي شوارعها ، مما أدى الى حجب المناطق التقليدية ضمن نسيج المنطقة ، هذا الأمر أثار نقاط خلاف بين المختصين بالعمارة والتخطيط مابين مؤيدٍ لوجود عمارة الحداثة ضمن النسيج التقليدي بحيث تتحقق استقلالية كل نمط ، وبين معارضٍ لهذه الفكرة لوجود التناقضات بين النمطين .
- من أبرز الأسباب التي دعمت ظهور عمارة الحداثة وانتشارها في بغداد الانفتاح الثقافي والتطور الاقتصادي والتغيرات السياسية .
- أن عمارة الحداثة كانت غير متفاعلة مع النسيج المحيط بها ولم تنسجم معه وغيرت من نمط استعمالات الأرض ، الا أن ذلك لم يمنع أن تعتبر ظاهرة حضارية ميزت مدينة بغداد في تلك الحقبة وأضافت بصمة عمرانية على النسيج الحضري .

التوصيات :

- إن المرحلة التي يمر بها البلد تتطلب التواصل مع دول العالم المتقدم في تطوير مدننا وخاصة عاصمتنا بغداد من خلال إحداث تغيرات في نسيجها العمراني الذي أصابه التهرؤ لقِدَمِهِ والدمار بسبب التقلبات السياسية ، لذا لابد أن نشيد عمارة تستلهم الفكر الجديد بممارسات عراقية تنسجم مع طابع مدينة بغداد ، تراعي التراث وتطور المتبقي من النسيج .

- الاهتمام بأبنية الحداثة لأنها مثّلت حقبة مزدهرة في تأريخ مدينة بغداد من خلال صيانة أبنيتها وإعادة استخدامها كمنشآت إدارية مع إضافة تكنولوجيا متقدمة لخدماتها والاهتمام بتصميم المحال التجارية التي تحتل الطابق الأرضي منها لأنها تمثل قلب مدينة بغداد التجاري.
- العمل على تغيير استعمالات الأرض المحيطة بعمارة الحداثة لأنها في الظاهر تبدو بيوتاً سكنيةً ، الا أنها في حقيقة الأمر تمثل مخازن لأصحاب المحال التجارية استغلت بشكل اثّر سلباً من الناحية العمرانية والاجتماعية على طابع النسيج التقليدي لتلك المناطق .
- التعاطي مع هذه المنطقة كنسيج متكامل في الدراسات المعمارية والتخطيطية لأن عمارة الحداثة هي جزء من نسيج مدينة بغداد تاثرت به وأثرت عليه .

المصادر:

1. السلطاني، د. خالد، رؤى معمارية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمّان، الاردن ،الطبعة الاولى، 2000، ص360.
2. السلطاني، د. خالد، رؤى معمارية ، المصدر السابق، ص360.
3. السلطاني، د. خالد، رؤى معمارية ،المصدر السابق، ص360
4. السلطاني، د. خالد، رؤى معمارية ، المصدر السابق، ص345.
5. الزبيدي ، مصطفى جليل ، اثر العولمة على المدينة العربية الإسلامية ، رسالة ماجستير ، المعهد العالي للتخطيط الحضري والإقليمي ، جامعة بغداد ، 2004 ، ص 63 .
6. السلطاني، د. خالد ، المصدر السابق، ص228.
7. يوسف، شريف، تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982،ص 458.
8. الراوي ، خالد ثابت ، عمارة قحطان عوني – دراسة تحليلية وتوثيقية – ، رسالة ماجستير ، كلية الهندسة ، جامعة بغداد ، 1990 ، ص 29 .
9. السلطاني، د. خالد ، رؤى معمارية ، المصدر السابق، ص376.
10. السلطاني، د. خالد، دراسة في عمارة الخمسينات ، مجلة آفاق عربية ، 1993، ص39.
11. رزوقي ، د.غادة موسى ، الخصوصية في العمارة – دراسة تحليلية وتوثيقية للتراث المعماري وتوظيفه في العمارة المعاصرة في العراق – ، رسالة ماجستير ، كلية الهندسة ، جامعة بغداد ، 1987 ، ص 46 .
12. البهنسي ، أ. سعد صديق ، فن العمارة ، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع ، الطبعة الاولى ، 2006 ، ص 255.
13. مهدي ، د.سعاد عبد علي ، العمارة العراقية بين المحلية والعالمية ، مجلة آفاق عربية ، 2001، ص41.
14. سلمان ، د.جمال داود ، و حسون ، د. طاهر فاضل ، التخطيط الاقتصادي ، بيت الحكمة ، جامعة بغداد ، 1989 ، ص 190 .
15. Salter, Lord Arthur: The Development of Iraq ; The Development Board ; 1955; P.1.
16. الراوي ، خالد ثابت ، عمارة قحطان عوني – دراسة تحليلية وتوثيقية – ، رسالة ماجستير ، كلية الهندسة ، جامعة بغداد ، 1990 ، ص 27 .
17. السامرائي ، سعيد عبود ، التطور الاقتصادي الحديث في العراق ، مطبعة القضاء ، النجف ، الطبعة الاولى ،1977 ، ص139.
18. الراوي ، خالد ثابت ، عمارة قحطان عوني – دراسة تحليلية وتوثيقية – ، المصدر السابق، ص 31 .
19. الملاحويش ، عقيل نوري ،العمارة الحديثة في العراق– تحليل مقارن في هندسة العمارة والتخطيط – ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1988 ، ص 330 .
20. الملاحويش ، عقيل نوري ،العمارة الحديثة في العراق ،المصدر السابق، ص 270 .

21. جواد ، مصطفى – سوسه، احمد– مكية، محمد . معروف، ناجي، كتاب بغداد، نقابة المهندسين العراقية ،1968 ، ص82.
22. الملاحويش ، عقيل نوري ،العمارة الحديثة في العراق ،المصدر السابق، ص 125 .
23. سلمان ، د.جمال داود ، و حسون ، د. طاهر فاضل ، التخطيط الاقتصادي ، المصدر السابق، ص 196 .
24. السلطاني، د. خالد ، رؤى معمارية ، المصدر السابق ، ص420.
25. السلطاني، د. خالد ، رؤى معمارية ، المصدر السابق ، ص365.
26. السلطاني، د. خالد ، مئة عام من عمارة الحداثة، دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق ، سوريا ، 2009 ،ص 249 .
27. حديد ، زها ، مقابلة صحفية في جريدة الزمان أجراها كريم نعمة ونشرت في مقال (زها حديد تفند من جديد مقولة مهندسة قرطاس – معمارية عراقية تشيد مخروطاً من الضوء في متحف علوم بالمانيا)، لندن ، العدد2268 ، بتاريخ 26 /2005/11 . من الموقع الالكتروني
www.azzaman.com/azzaman/ftp/articles/.../669.htm
28. السلطاني ، د. خالد ، مقالة بعنوان (مسجد ما بعد الكولونيالية) في موقع الحوار المتمدن الالكتروني . www.ahewar.org ، العدد 1226، بتاريخ 2005/6/12.
29. السلطاني ، د. خالد ، مقالة بعنوان (مسجد ما بعد الكولونيالية) في موقع الحوار المتمدن ، العدد 1226 ، بتاريخ 2005/6/12. www.ahewar.org
30. السلطاني ، د. خالد ، مقالة بعنوان (مسجد ما بعد الكولونيالية) في موقع الحوار المتمدن ، العدد 1226 ، بتاريخ 2005/6/12. www.ahewar.org
31. التطور الاقتصادي في العراق بعد ثورة السابع عشر من تموز ، الطبعة الثانية ، تشرين الثاني 1974، ص 47.
32. التطور الاقتصادي في العراق بعد ثورة السابع عشر من تموز ، الطبعة الثانية ، تشرين الثاني 1974، ص 50.
33. السامرائي ، سعيد عبود ، التطور الاقتصادي الحديث في العراق ،مطبعة القضاء ، النجف ، الطبعة الاولى ، 1977 ، ص130.
34. المصدر السابق ، ص 124 .
35. الملاحويش، عقيل نوري، العمارة الحديثة في العراق، المصدر السابق، ص 66.
36. مهدي ، سعاد عبد علي ، عمارة الاجانب في بغداد – دراسة توثيقية تحليلية لأهم أعمال المصممين الأجانب (1900 –1960)– ، رسالة ماجستير ، كلية الهندسة ، جامعة بغداد ، 1987 ، ص 169 .
37. الملاحويش ، عقيل نوري ، العمارة والنيسج الحضري الحديث في العراق ، رسالة ماجستير ، كلية الهندسة ، جامعة بغداد ، 1986، ص 120.
38. الراوي ، خالد ، عمارة قحطان عوني – دراسة تحليلية وتوثيقية – المصدر السابق، ص 32 .
39. السلطاني، د. خالد، رؤى معمارية، المصدر السابق، ص379.
40. الملاحويش ، عقيل نوري ، العمارة والنيسج الحضري الحديث في العراق ، المصدر السابق، ص 129.
41. السلطاني، د. خالد، رؤى معمارية ، المصدر السابق، ص 622.
42. الملاحويش ، عقيل نوري ، العمارة والنيسج الحضري الحديث في العراق ، المصدر السابق، ص 144.
43. سلمان ، د.جمال داود ، و حسون ، د. طاهر فاضل ، التخطيط الاقتصادي ، بيت الحكمة ، جامعة بغداد ، 1989 ، ص 194 .
44. الجنابي ، علي حسين محمد ، توزيع الاستثمارات وانعكاسه على توزيع السكان في العراق –دراسة تحليلية– ، اطروحة دكتوراه ، المعهد العالي للتخطيط الحضري والاقليمي ، جامعة بغداد ، 2006 ، ص 77.

45. الجنابي ، علي حسين محمد ، توزيع الاستثمارات وانعكاسه على توزيع السكان في العراق –دراسة تحليلية– ، المصدر السابق ، ص 77.
46. النجار ، د. يحيى غني ، دراسة في التخطيط الاقتصادي مع اشارة خاصة لتجربة العراق ، الموسوعة الصغيرة ، دار الحرية للطباعة ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، العدد 30 ، سنة 1978 ، ص 107 .
47. سلمان ، د.جمال داود ، و حسون ، د. طاهر فاضل ، التخطيط الاقتصادي ، بيت الحكمة ، جامعة بغداد ، 1989 ، ص 196 .
48. الجنابي ، علي حسين محمد ، توزيع الاستثمارات وانعكاسه على توزيع السكان في العراق –دراسة تحليلية– ، المصدر السابق، ص 89.
49. الكناني، د. كامل كاظم بشير، " التخطيط الإقليمي: تأثيرات الحرب وآفاق المستقبل، دراسة تحليلية في البنية المكانية للاقتصاد العراقي بين مؤشرات التخطيط الإقليمي وتأثيرات الحرب" ، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الثاني، المجلد الثامن والأربعون، بغداد، 2001، ص 52.
50. السلطاني، د. خالد، رؤى معمارية ، المصدر السابق، ص 684.
51. الراوي ، خالد ثابت ، عمارة قحطان عوني – دراسة تحليلية وتوثيقية – المصدر السابق، ص 107 .
52. كمونة ، د. حيدر عبد الرزاق ، بعض الملاحظات عن المشاكل التخطيطية التي يعاني منها مجتمع مدينة بغداد ، المنظور العمراني لمدينة بغداد ، مطبعة دار الحكمة ، بغداد ، 1991 ، ص 270 .